بقلم الاب لامنس اليسوعي

ما اوهى حياة الكتب ! فانها وديعة الورق ؛ وما اقرب مادة الورق من التلف ! ان المحافظة على الكتب تقتضي مراقبة لا تعرف الملل لتحميها من الشمة والنار . ومن ذلك نفهم حكمة البابليين واليونان والرومان في نقشهم على الآجر ، او الحجر ، او النحاس ، الكتابات التي كانوا يقصدون حفظها على مدى الدهر .

ذكرنا اعداء الكتب ولم نذكر الدهم اعني الانسان . هذا ما يشهد عليه التاريخ ، ويا لـه من تاريخ مفجع ليس فقط في العصور الخوالي ، ولكن في عصرنا ايضاً عصر النور . حسبنا الاشارة الى احراق مكتبة لوفان في شهر آب ١٩١٤ اذ اتلف فيها اكثر من ٢٠٠,٠٠٠ كتاب مطبوع او مخطوط . وقد حدث ذلك الحريق لا قضاء وقدراً كما قد يحدث في الحروب ، ولكن تعمداً . وقد حكمت معاهدة ڤرسايل على من وقعت عليهم تبعة هذه الجريمة بالتعويض عنها ، ان يكن من ثم سبيل الى التعويض عن امثال هذه الاضرار !

نشرنا في المشرق (٢٠ [١٩٢٢] ١٠٧) مقالاً على اتلاف مكتبة طرابلس عندما فتحها الصليبيون ؛ واظهرنا ، في حقيقته التاريخية ، ذلك الحادث ، وكانوا قد ضخموه ومسخوا وجهه حتى اضحكونا . وما هو الا قصة بضعة آلاف المجلدات كان آل بني عامر الشيعيون قد جمعوها ليذيعوا بها مذهب البدعة الامامية . فاذا بذلك العدد قد بلغ الثلاثة ملايين يا للجهل ! ايدري الذين اذاعوا تلك الحكاية ان ثلاثة ملايين من الكتب عزيزٌ وجودها حتى في مكاتب العواصم

الغربية المؤسسة منذ الاجيال . بيد ان مجموعة طرابلس الشيعية لم تكد تبلغ الخمسين سنة من عمرها !

ان قراءنا وقفوا على المناقشات اللاذعة التي دار محورها على مشكل تاريخي آخر وهو نسبة احراق مكتبة الاسكندرية الى الخليفة عمر بن الخطاب . في نظرنا ان البرهان القاطع على ذلك الاتلاف لم يثبت بعد . على ان الخبر ، وان كان اسطورة من الاساطير ، فلا بد من تفسير السبب الذي دعا عبد اللطيف ، وابن القفطي ، والمقريزي ، وغيرهم من قدماء المؤرخين الاسلام الى اشاعته . لعلهم ظنوا نسبة احراق مكتبة الاسكندرية الى عمر مرقاةً لكرامته ، ولا وسيلة ابلغ منها الى غرضهم وهو الاشادة بغيرة عمر على الاسلام . ولعلّ ابن خلدون رأى رأيهم فنحا منحاهم ؟ جاء في المقدمة[1] « فامن علوم الفرس الذي [كذا] امر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح » وكأن ابن خلدون قد دهش من قلة الكتب الفارسية القديمة فلم يتردّد بنسبة فقدانها الى الخليفة عمر . لا نعرف اين استقى المؤرخ الشهير مصادره ولا نعرف هل اخذ عنه هـذا الخبر غيره من المؤلفين . على ان تاريخ البلاد الاسلامية طافح بحوادث النكبات التي ذهبت فيها مكاتب برمتها ضحية اغراض البشر الردية .

* * *

من اشهر تلك النكبات ما حل في بغداد ، الشهيرة ليس فقط بمكاتبها ولكن بمخاصماتها الدينية ايضاً ، اذ احتكّ في ميدانها منذ القرن الحادي عشر السنيّون بالشيعيّين اولاً ، ومن بعدهم الحنبليون بسائر المذاهب . وربما عمدوا الى السلاح لفضّ المشاكل ولم يكن من النادر ان يهاجم احد الفريقين كتب الفريق الآخر .

وقد حفظ كتاب الف ليلة وليلة صدى تلك الحوادث اذ روى ان ابواب بغداد كانت مغلقةً ليلاً لتمنع اصحاب البدع من اتلاف الكتب وطرحها في دجلة ، ممّا يدل على ان الحادث لم يكن من الامور التي لم يُسمع بها قط !

[1] طبعة باريس ١ : ٧٨

وفي سنة ١٠٥٩ عاث عسكر السلطان السلجوقي طغرول بك[1] فسادًا في عدة مكاتب بغدادية واحرقوها . واتلف التتر غيرها من المكاتب على ايام هولاغو ، وابادوها فلم يبقَ لها اثر .

وان ما يُروى عن مكتبة غزنة[2] (افغانستان) يؤيد كلامنا بمثل آخر . فانها أُحرقت على يد جنود الامير حسين سنة ١١٥٥ عند تدميرهم المدينة .

وسنتين قبل ذلك العهد حول الاتراك[3] الى رماد مكتبة نيسابور . وسواء أكان الفاتحون في النضال سنتين ام شهرين فانهم قلما قصوا النفس الأمارة بالسوء . ومنعوها عن احراق كتب خصومهم . وجرت احكام هذه السنة القاسية بمكتبة حلب على ايام ابي العلاء المعري ، يوم عاشوراء . وعلى هذا المنوال دُمرت مكتبة الري في بلاد فارس .

وقبل ذلك العهد بسنتين امر السلطان محمود الغزنوي باحراق « كل ما كان في علم الكلام »[4] . فضلًا عن الكتب التي اعلنت الريبة في صحة تقييمها . اعني بها كتب « الروافض واهل البدع » .

وكان للاتراك والتتر النصيب الاوفر في تلك الفظائع . فهيا بنا نرى الآن هل كان المسلمون في سائر البلاد ارحب صدرًا واكثر اكرامًا للمنتوجات العقلية ؟

* * *

لقد كتبوا ما كتبوا في هذه الآونة الاخيرة تعظيمًا لما بلغته الاندلس من علوّ منزلة العمران . حتى ان البشرية لم ترتقِ في زعمهم الى مثل ذلك النجاح الفكري والمادي . يا لها من بيئة سعيدة لا خطر فيها على الكتب من فساد المفسدين . ولكن لا بد من القول ان الواقع كان خلاف الاوهام . ليس بلد من البلاد حفظت له تواريخ العرب من احراق المكاتب ما حفظته للاندلس . وها ان الاستاذ

١) ابن الاثير ، التاريخ الكامل ، ٩ ، ٢٤٦ ؛ ١٠ ، ٥
٢) ابن الاثير ، التاريخ الكامل ، ٩ ، ٢١٧
٣) ابن الاثير ١١ ، ١٢٠
٤) ياقوت : ارشاد الاريب ، ٢ ، ٢١٥

ريبيرا[1] خصّ مكاتب الاندلس الاسلامية واصحابها بدرس مسهب وبيّن ما كان للكتب من المحل في شغف النـاس وولعهم ثم قال : « في الاندلس ، سحابة قرون عـدة ، كان الوقوف على حريق المخطوطات العربية من الذمّا تتشفع به العامة في اعيادها وافراحها[2] . »

ولما رسخت قدم المذهب المالكي في الاندلس وطرد المذهب الاوزاعي ، الذي كان قد دخل البلاد مع العرب السوريين ، استشم العلماء المالكيون رائحة البدع في كل مكان ؛ فحركوا الشعب فصار يناوئ كل مجدد حقيقي او مزعوم ويحرق كتبه . ومن الـذين ذهبوا ضحية تلك الحركة ابن مسرة الفيلسوف وبعده ابن كليب[3] المتهم بتعليم « القدر » ، احرقت كتبه بعد موته في ساحة البلد . وكانت الحكومة تتبع تلك الفظائع ولا تجرؤ على مقاومتهـا . احبّ الوزير المنصور المؤلفات الفلسفية وحرص كل الحرص على اخفائها . وكان للسلطان في عزّه مكتبة بلغ عدد مجلداتها على ما يقال ٤٠٠,٠٠٠ فلم ينجهـا من شر هذه الاعمـال البربرية . لان المفتشين دخلوها ، واحرقوا منها عدداً وافراً في محضر من الوزير المنصور ، وقد اضطرّوه الى مساعدتهم على اتلافها . ولم يبقوا الّا على ما لم يجدوا فيه شبهةً من كتب الطب والحساب والشريعة وغيرها .

ولما استولت دولة المرابطين على الاندلس ، كثرت حركة التدمير ، فاحرقت مؤلفات الفلاسفة وفيها كتب الغزالي الذائع الصيت . وكذلك جرى في مكاتب عديدة[4] . ثم غلب الموحدون المرابطين فاخذوا باحراق كتبهم ، ودارت الدائرة على كتب المذهب المالكي : حملوها احمالاً على الرواحل ، ووجهوها الى فاس في مراكش واحرقوها في مجتمعات الناس .

في السنة ١٥٤٢ حلّ فاس رجل بلجكي اسمه نقولا كلينـار ، وكان يحسن العربية وهو مشغف بها ، ومما لفت نظره في المدينة عدم وجود المكاتب وندورة المخطوطات ، وعددها اقل من القليل ، فان المؤلّف الشامـل بضع

١) *Disertaciones y opusculos, I. 181. etc.* ٢) *I, 220.*

٣) راجع الغرضي : تاريخ علماء الاندلس (*Id. Codera. I, p. 120, n° 417*)

٤) ابن الابار : كتاب التكملة لكتاب الصلة (*Id. Codera*) *II* ، ٥٦٧ ، ٣

مجلدات كان وجوده بكماله مستحيلاً.

وكانت دولة الموحدين قد رضيت على ابن رشد ، فانقلب الشعب الاندلسي عليه وعلى مؤلفاته . وهذا الانقلاب يدلنا على سبب قلّة ما حفظ من مخطوطات ابن رشد . واتلفوا ما اتلفوا من الكتب حتى نفدت خزائنها . ولذلك لما اراد سلاطين بني مرين تأسيس مكتبة في فاس قصدوا الى الملك سانشو[1] الرابع ، فارسل اليهم الامير المسيحي من بلاده ثلاثة احمال من المخطوطات العربية .

ذكرنا المؤرخ ابن الآبار وفاتنا القول ان كتبه قد أُحرقت في ساحة تونس الغرب . فهل من سبيل بعد الى السؤال عن مؤلفات مسلمي الاندلس ؟ او ليس الاحرى بنا ان ندهش لبقاء جزء منها بعد تدمير المدمرين !

فاذًا ، شاء البعض او أبوا ، لا بدّ من الاقرار ان البيئة الاندلسية لم تكن ارحب صدرًا من غيرها بالمنتوجات العقلية . ومما يأسف له العلم كثيرًا ان الكتب كانت تذهب ضحية تلك الايام . وسواء أكان المالكيون غالبين او مغلوبين ، فعلى الكتب كانت تحلّ نقمة الناقمين .

وفيما نحن في هذا الصدد ، لا بد من ذكر القاهرة حيث انشأ الخلفاء الفاطميون مكتبة نفيسة . لقد نالها ضرر عظيم في الثورات العسكرية التي اضطرمت نيرانها في اواخر الدولة الفاطمية . فأُتلف جزء من الكتب ، وجزء آخر ظلّ محفوظًا الى ان ملك مصر صلاح الدين . فقُيض للسلطان الكردي الاجهاز على تلك المكتبة الشهيرة : اعطى قسمًا منها كاتبه القاضي الفاضل ، وامر بعرض الباقي في السوق بالمزاد . وطال بيعها سنين . . .

فتأمل واعظم بالكارثة ! . واعلم ان صلاح الدين عامل مكاتب سورية المعاملة ذاتها . حتى قال بعضهم ان عبد اللطيف المعجب بصلاح الدين كثيرًا اختلق خبر احراق المكتبة على يد عمر ، عذرًا لسلطانه ، وذهب مذهبهم المرحوم كازانوفا[2] . ولكن ، صح الخبر او كذب ، فليس فيه ما يعود بالفخر على صلاح الدين ولا على عبد اللطيف .

١) راجع روض القرطاس (*éd. Tornberg*) ص ١٨

٢) *Académ. Inscriptions et belles-lettres, 1923, p. 163-71*